Coptology

ميلاد المسيح

دعوةٌ لاختيار الحياة والمصير

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢٤

www.coptology.org

ميلاد المسيح معجزةٌ فريدةٌ في تاريخ الحياة الإنسانية؛ فلكل إنسانٍ أبٌ وأُمٌّ، إلَّا المسيح وحده، الذي له أُمٌّ فقط، ومولودٌ بقوةٍ خارقةٍ وعملٍ إلهيٍّ، مولودٌ بطريقةٍ فائقةٍ للطبيعة.

هذه المعجزة الفائقة تدعونا لأن نقفَ أمام ميلاد الإنسان كحدثٍ لا يمكن أن ينفصل عن المعجزة، فإن كانت بداية الحياة الإنسانية للمسيح بلا أب، إلَّا أنها تمَّت بواسطة أُم.

هذه المعجزة ليست دعوةً للدهشة والإعجاب، فالمعجزةُ الفائقةُ ثابتةٌ في الحياة الإنسانية، وتمسك بالميلاد الإنساني من الأُم كعلامة على حقيقة إنسانية المعجزة.

وعي الإنسان بذاته جزءٌ جوهريٌّ جدًا من التكوين البشري. والإنسان بشكل عام تقوم حقيقة ميلاده على اللاوعي الذي يبدأ بالزواج ويصل إلى قمته بمجيء كل إنسان إلى هذه الدنيا، دون أن يُسأل عن جنسه ومكانته الاجتماعية ومصيره.

هذا اللاوعي الذي يمتد من الأب والأُم والوليد، يمثِّلُ حقيقة ارتباط كل ما هو مخلوق بالعدم واللاوجود، فكل ما لا وجودَ له، لا وعي له -إنسانيًا- فحتى خلال الزيجة يتبين أن هناك وجودًا عشوائيًّا للإنسانية، وهذا الوجود العشوائي للإنسانية مردودٌ أصلًا إلى إرادة الأب والأُم، وهي إرادة منبثقة من اللاوعي، وبالتالي فهناك نوعٌ من اللاعقلانية في الوجود، أو لا معقولية الوجود مصدره شعور الإنسان بأنه آتٍ رغمًا عن إرادته، وأنه لا يفهم سبب وجوده في هذه الدنيا، هذه اللاعقلانية أو اللامعقولية تجعل الإنسان كثيرًا ما يفشل في اختيار كيانه والبحث عن مصيره، وتدخل عشوائية الوجود في الإرادة والفكر الإنساني، وتجعل الوجود الإنساني يميل إلى العشوائية.

من أجل هذا وُلِدَ المسيحُ ميلادًا فريدًا معجزيًا ليعطي ميلادًا جديدًا للإنسانية، لا من اللاوعي أو العشوائية، بل كعطية إلهية، وهكذا صار ميلاد المسيح بمثابة دعوة إلى تجاوز اللاوعي والوجود العشوائي الذي ينتمي إلى إرادة الأب والأُم إلى الوجود الذي هو هبة من الله وعطية تفوق كل الظروف التي تحيط بكيان كل إنسان.

وبميلاد المسيح صار اللهُ بديلًا للعالم، وصار قبول وجودِنا واختيار حياتِنا ومصيرِنا دعوةً لتجديد الإنسان لتحل الحريةُ محل حتمية الوجود، ويحل اختيار الكيان محل لا عقلانية رفض الوجود. لقد أتى المسيحُ بهذه الهبة مؤَكِّدًا أن المعجزة الفريدة يمكن أن تستوعب الكيان الإنساني، مؤكدًا على أبوة الله للإنسان وعلى ضرورة العودة الواعية إلى الله كأب وكمصدر للحياة الإنسانية، فهذا يخلق الإنسان من جديد ويُدخِله إلى المجال الإلهي حيث الحرية، الالتحام الحقيقي بالله المصدر الأصلي لإرادة الوجود والبقاء.

إذًا علينا أن نسأل: كيف تناولت هذه المعجزة الفريدة حقيقة الكيان الإنساني؟ لقدُ وِلَد المسيحُ من امرأةٍ، وهذا يعني بشكل جذري أنه إنسانٌ، ولكن جاء بإرادته ليُولَد ذلك الميلاد الإنساني اللاواعي ويجعله ميلادًا واعيًا لحقيقة حصول الإنسان على حياته كعطيةٍ إلهيةٍ. ولقد عبَّر عن حقيقة وعيه بذاته، وهو طفلٌ لم يتجاوز الثانية عشر بقوله: "ينبغي أن أكون فيما لأبي" (لوقا ٢: ٤٩). ومن هنا دخلت حقيقة أُبوة الله الكيان الإنساني، فالله هو الآب كأقنوم، وهو الآب أيضًا الذي منه أخذنا الكيان البشري.

لقد وُلِدَ المسيح لنُولَد نحن من الله، حسب ما قال آباء الكنيسة الشرقية، وليصبح لنا وعيٌ وكيانٌ ينتمي بشكلٍ مباشر إلى الخالق؛ لكي يتم تجديد الكيان

البشري وتختفي اللاعقلانية من الطبيعة الإنسانية. فنحن نُولَد ميلادًا جديدًا لكي نتقبَّل ونعي كياننا، ونجد هذه الحقيقة المؤكدة ثابتة على دعامة تجسُّد ابن الله، ومِن هنا يصير الوعي بالذات حقيقة مؤكدة بالمعجزة الفائقة.

الروحُ يمثل غير المنظور، والعذراء تمثل ما هو منظور، وبالتالي نحن نُولَد بشكلٍ غير منظور ميلادًا جديدًا لكي يتحول كياننا الذي نأخذه من الأب والأُم إلى علاقة انتماء إلى ما هو غير منظور؛ إلى الله، ولذلك إن كنا لا نعي وجودَنا عندما نُولَد، فإننا في هذه المرة إن شئنا، نختارُ وعيًا جديدًا لوجودنا في المسيح.

وعندما يقول إنجيل القديس يوحنا: "الكلمة صار جسدًا" (يو ١: ١٤)، فهو يؤكد حقيقة الكلمة كوعيٍ وإدراك. صار متجسِّدًا ذا لحمٍ ودمٍ، ولكن الآية الكبرى هي عندما يتحول اللحم والدم بدوره إلى كلمة وإلى وعيٍ وإدراك.

وغاية ميلاد المسيح هي أن يصبح كل ذي لحمٍ ودمٍ، كلمةً، أي إدراكًا في عالمٍ يغيب عن الوعي والإدراك في تطاحُن الحروب وصراع الأشقاء ومأساة استعباد الآخرين.

فالكلمةُ صار جسدًا لكي يطلق القوة الروحية الإنسانية، فتأخذ معها اللحم والدم وتحولهما إلى إدراكٍ ووعيٍ بحقيقة الكيان الإنساني. وحضاريًا عبَّرت المسيحية عن هذا عندما رفضت عن وعيٍ وإدراك، أن يبقى الإنجيلُ أسيرًا في البيئة الآرامية التي تكتب العبرانية، وأذاعت هذه البشرى بلغة العصر والثقافة، أي اليونانية، ودعت كلَّ ذي جسدٍ إلى أن يتقبَّل هذه الآية بلغته الأصلية. وروحيًا يطلب المسيحُ من المؤمنين به أن يصيروا كلمة شهادة عندما يدخل الجسد كحقيقة حية معقولة تنتمي إلى الحياة الإنسانية.

وهنا الميلاد الجديد يمثل دعوةً لتجاوز كل قيود الماضي: اللغة، العادات الاجتماعية، الملابس، الحدود الفكرية بل والإقليمية، وكل ما هو موروث، فكل هذه لا تخلق وعيًا صحيحًا بذات الإنسان، وإنما تساهم إذا امتزجت بالوجود العشوائي في خلق صورة متحجرة لحياة إنسانية تحاول أن تكتشف ذاتها بلا وعي الوجود الموروث من الأب والأُم.

لقد حوَّل ميلاد المسيح اليهوديةَ إلى المسيحية، وأطلق قوة الإنسان الروحية وأقام قاعدة حرية الاعتقاد على صرح أُخوة البشر في الله لا في الجنس أو اللغة.

ومع أن المسيح وُلِدَ في بيئةٍ تتكلم الآرامية وتكتب العبرانية، إلَّا أن حياته ذاعت بلغة العصر والثقافة، أي اليونانية، وعاشت بعد ذلك بكل لغات الدنيا. ولم يطلب المسيح لغةً من الناس، أو عادةً اجتماعية، أو حتى دينية، فالعادات مرآةُ الماضي، ولا طلب ملابسَ معينةٍ يتميز بها المسيحي عن غيره، لأن الملابس لا يمكنها أن تخلق الوعي الصحيح بالذات، ولو استطاعت لصار القِماشُ هو أقدس ما في حياة الإنسانية.

وفجَّر المسيحُ بميلاده دعوةَ التحرر من الماضي في سبيل الرقي والصعود الدائم إلى معارج كمال الإنسان، أي أن يكون الإنسان صورة لله في المحبة والحرية والعطاء، فالإنسان لا يمكن أن يكون صورة لله إذا ظل ابنَ رجلٍ وامرأة. إنه إذا مكث على هذه الحال يظلُّ أسيرًا للحم والدم ويسقط في اللاوعي وفي لا عقلانية الوجود.

لقد دعانا المسيح لأنْ نكون "أبناء النور"، وأحد معاني هذه الكلمات التي استقرت في تراثنا المسيحي المصري هي أن نكون "أبناء المستقبل". والذين ينتمون إلى

النور لا يساهمون فقط في تبديد الظلمة، وإنما يشقُّون الطريق الصحيح ويرتادونه قبل غيرهم ويسبقونهم في طريق الحق والصلاح.

والخوف من المستقبل هو خوفٌ من المجهول، وهو بدوره من بقايا العدم أو اللاوعي، ويقودُنا إلى أن نقبع في الماضي وأن نظل متمسكين بكل ما هو مألوف، ولكن الذي وُلِدَ من الروح القدس ومن القديسة مريم العذراء يدعونا إلى أن نُولَد من النور، من تلك القوة الخفية التي تُبدِّدُ الظلام وتكشف عن حقيقة الانتماء إلى ما هو آتٍ. بذلك نكون قد أوجزنا مجمل رسالة الإنجيل، فنرتمي بكل قوتنا في أحضان المستقبل.

نحن مدعوين إلى أن يكون لنا ميلادٌ آتٍ، وأن نُولَد بصورةٍ دائمةٍ عندما نخرجُ بوعيٍ وإدراكٍ جديدين من اللاوعي، من الجهل والعشوائية إلى اختيار الكيان والمصير. ومتى ارتمينا بكل قوتنا في أحضان المستقبل، فإننا نكون قد ارتمينا بكل قوتنا في أحضان الحياة الإنسانية المتجددة.

إن الحياة الإنسانية تظل تتمتع بنضارةٍ دائمةٍ إذا سَمَتْ إلى الوعي بالذات من خلال الله، فالله لا يشيخ، ولا يتعب، ولا يُصاب بأمراض الإنسان الفكرية، أمَّا الإنسان الذي يتساءل في لحظات الألم، وعندما تحرقه نيران التجارب عن سبب وجوده، فيتسرب إلى كيانه كمٌّ هائلٌ من اللاعقلانية التي تساهم في تكوين الإحباط واليأس.

مثل هذا الإنسان تمتد إليه يدُ ابن مريم داعيةً إياه لأنْ يقبل وجودًا ووعيًا مختلفًا، حتى وإن بدت مظاهر الحياة الاجتماعية معاكسة. فالمذود، والخوف، واستبداد الحاكم، وفقر الناصرة، وجيش الاحتلال الروماني، ونفاق رجال الدين، وفساد المؤسسة

الدينية ووقوعها في قبضة المظهرية والسطحية، كل هذا لا يدفع الإنسان إلى اليأس، لأن الكيان الجديد الآتي من الله أسمى من كل هذه الظروف، ويتخطاها الإنسان بعودته إلى الله كأبٍ وَهَبَه الكيان والوجود، دون أن يكون لأيٍّ من هذه العناصر قدرةٌ على أن تنال من كيان الإنسان.

إن المذود، والهرب إلى أرض مصر، والحياة الفقيرة في الناصرة، واللغة العبرانية والتراث اليهودي، كل ذلك لم يكوِّن وعي المسيح بذاته، وإنما "ينبغي أن أكون فيما لأبي"، لأكون صورةً منيرةً للكيان الإنساني المتميز الآتي من المستقبل، من الحياة الإنسانية التي يسمو فيها الإدراك ويتخطى كل الحواجز الثقافية والاجتماعية ويجعل الإنسان كلمةً وبشارةَ سلامٍ وكلمةَ حكمةٍ في عالمٍ يغيب عن الوعي باللاوعي محاولًا بشتى الطرق أن يبتعد عن الوجود العشوائي. وكل هذه الطرق تفشل، لأنها تجعل الإنسان أسير اللحم والدم.

فيا مَن وُلِدتَ في بيت لحم، ودعوتنا لأنْ نكونَ أبناء النور، أبناء الزمان الآتي، زمان الحياة وليس زمان الموت، زمان الوعي بالذات:

+ ليكن عيدُكَ اختيارًا للمصير، وإقرارًا بعقلانية كياننا، لنغتسل من أوحال الطائفية والعرقية، وبذلك يتم قولك: "مبارك شعبي مصر".

كل عام وأنتم بخير